



لماذا غاب عنا “التفكير السنّي” ؟

مع تأكيد القرآن الكريم، في أكثر من موضع، أهمية الانتباه إلى سنن الله تعالى، والاعتبار بها؛ فإننا نلاحظ، للأسف، غياب “التفكير السنّي” في حياتنا، بل والإصرار على مخالفته كأننا مأمورون باجتنابه وليس بممارسته!

وأما “التفكير السنّي” الذي نقصده في هذا المقال، فهو الانطلاق في الفهم والنظر - ومن ثم، في العمل - مما توجهه السنن الإلهية التي وضعها الله تعالى في خلقه أفرادًا ومجتمعات وكوّنًا، وجعلها قوانين حاكمة لحركة الحياة والأحياء، لا تبديل لها ولا تحويل.

وهذه السنن أو القوانين قد أشار إليها القرآن الكريم - والسنة أيضًا - في أكثر من موضع؛ في مثل قوله تعالى: {إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ} (محمد: 7)، {كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ} (المجادلة: 21)، {إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا} (الكهف: 30)، {إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُعْذِرُوا مَا يَنْفُسِهِمْ} (الرعد: 11)، {وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ} (الأنفال: 46)، {وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ} (الحج: 18)، {لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا} (النساء: 123)، {وَلَا يَزِدُّ بُأْسَنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ} (يوسف: 110)، {وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ} (محمد: 38).

وحثنا القرآن الكريم على الانتباه لهذه السنن، وأمرنا بوضعها موضع الاعتبار والتنفيذ، فقال تعالى: {قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ} (آل عمران: 137)، {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا} (محمد: 10).

ومع أن الفكر الإسلامي قديمًا وحديثًا - من ابن حزم وابن خلدون إلى محمد عبده ورشيد رضا و مالك بن نبي - قد التفت إلى السنن الإلهية وأهميتها، فإن هذه الجهود لم تستطع أن تجذّر “التفكير السنّي” في واقعنا ومجتمعاتنا، وبدت جهودًا غير مترابطة.. ربما لأن “التفكير السنّي” يأتي في قلب معادلة النهوض الحضاري المطلوبة بالإحاح؛ وما دمنا ببعيد عن تحقيق هذه المعادلة وشرائطها، فلا غرو أن تفصلنا الفواصل عن “التفكير السنّي”، ونكون غارقين فيما يخالفه!



ويكفي في هذا الصدد أن نلفت إلى أن السيد **رشيد رضا** دعا إلى إفراد السنن الإلهية بعلم من العلوم، كما حصل مع العلوم التي تفرعت عن القرآن والسنة؛ فقال: “إِنَّ إِرْشَادَ اللَّهِ إِيَّانَا إِلَى أَنْ لَهُ فِي خَلْقِهِ سُنَنًا، يُوجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَجْعَلَ هَذِهِ السُّنَنَ عِلْمًا مِنَ الْعُلُومِ الْمُدَوَّنَةِ؛ لِنَسْتَدِيمَ مَا فِيهَا مِنَ الْهِدَايَةِ وَالْمَوْعِظَةِ عَلَى أَكْمَلِ وَجْهِ؛ فَيَجِبُ عَلَى الْأُمَّةِ فِي مَجْمُوعِهَا أَنْ يَكُونَ فِيهَا قَوْمٌ يَبْتَئُونَ لَهَا سُنَنَ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ كَمَا فَعَلُوا فِي غَيْرِ هَذَا الْعِلْمِ مِنَ الْعُلُومِ وَالْفُنُونِ الَّتِي أُرْسِدَ إِلَيْهَا الْقُرْآنُ بِالْإِجْمَالِ وَقَدْ بَيَّنَّهَا الْعُلَمَاءُ بِالتَّفْصِيلِ عَمَلًا بِإِرْشَادِهِ، كَالْتَّوْحِيدِ وَالْأُصُولِ وَالْفِقْهِ. وَالْعِلْمُ بِسُنَنِ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ أَهَمِّ الْعُلُومِ وَأَنْفَعِهَا... وَلَكَ أَنْ تُسَمِّيَهُ (عِلْمَ السُّنَنِ الْإِلَهِيَّةِ) أَوْ (عِلْمَ الْجَمَاعَةِ) أَوْ (عِلْمَ السِّيَاسَةِ الدِّيْنِيَّةِ)” ([1]). وَبَيَّنَ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنْ “فَائِدَةُ هَذَا الْعِلْمِ فِي الْأُمَمِ، كَفَائِدَةُ عِلْمِ النَّحْوِ وَالْبَيِّنَانِ فِي حِفْظِ اللُّغَةِ” ([2]).

والسنن الإلهية في الاجتماع البشري تعني، كما يقول صاحب المنار: أَنَّ أَمْرَ الْبَشَرِ فِي اجْتِمَاعِهِمْ، وَمَا يَغْرِضُ فِيهِ مِنْ مُصَارَعَةِ الْحَقِّ لِلْبَاطِلِ، وَمَا يَتَّبِعُ ذَلِكَ مِنَ الْحَرْبِ وَالنِّزَالِ وَالْمُلْكِ وَالسِّيَادَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ؛ قَدْ جَرَى عَلَى طَرِيقِ قَوِيْمَةٍ وَقَوَاعِدَ ثَابِتَةٍ اقْتَضَاهَا النَّظَامُ الْعَامُّ؛ وَلَيْسَ الْأَمْرُ أَنْفَا كَمَا يَزْعُمُ الْقَدَرِيَّةُ، وَلَا تَحْكُمًا وَاسْتِبْدَادًا كَمَا يَتَوَهَّمُ الْحَشَوِيَّةُ ([3]).

وإذا أردنا مجرد إشارة إلى ما يخالف “التفكير السنني”، فيمكن أن نذكر: “اللاتفكير”، أي إهمال العقل وازدراؤه من الأساس.. أو “التفكير العشوائي”، غير المنضبط بقواعد العقل والاجتماع والعمران.. أو “التفكير العاطفي”، القائم على الرغبة والميل.. أو نشير إلى غير ذلك مما لا يستند على حجة واضحة، ولا يعتبر بسُنَّةٍ ماضية، ولا يقوم على فهم سليم للحقائق والوقائع، ولا يمد البصر خارج ضيق حدود الزمان والمكان الراهنيين.

وأما إجابة السؤال الذي اتخذناه عنواناً، وهو: لماذا غاب عنا “التفكير السنني”؟ فيمكن أن نشير إلى عدة أمور أسهمت في هذا الغياب، وأورثتنا حالة من التخطي والتراجع الحضاري.. ومنها:

عدم الاهتمام بالتاريخ

فظننا أنه علم على هامش مجالات المعرفة، بينما هو يقع في القلب منها. “فَثَلَاثَةُ أَرْبَاعِ الْقُرْآنِ تَقْرِيْبًا قَصْصٌ، وَتَوْجِيْهُ لِلْأَنْظَارِ إِلَى الْإِعْتِبَارِ بِأَحْوَالِ الْأُمَمِ، فِي كُفْرِهِمْ وَإِيْمَانِهِمْ، وَشَقَاوَتِهِمْ وَسَعَادَتِهِمْ، وَلَا شَيْءَ يَهْدِي الْإِنْسَانَ كَالْمَثَلَاتِ وَالْوَقَائِعِ. فَإِذَا امْتَثَلْنَا الْأَمْرَ وَالْإِرْشَادَ، وَنَظَرْنَا فِي أَحْوَالِ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ، وَأَسْبَابِ عِلْمِهِمْ وَجَهْلِهِمْ، وَقُوَّتِهِمْ وَصَعْفِهِمْ، وَعِزِّهِمْ وَذُلِّهِمْ، وَغَيْرِ ذَلِكَ وَمِمَّا يَغْرِضُ لِلْأُمَمِ - كَانَ لِهَذَا النَّظَرِ أَثَرٌ فِي نُفُوسِنَا يَحْمِلُنَا عَلَى حُسْنِ الْأُسُوءَةِ وَالْإِفْتِدَاءِ بِأَخْبَارِ تِلْكَ الْأُمَمِ فِيمَا كَانَ سَبَبَ السَّعَادَةِ وَالتَّمَكُّنِ فِي الْأَرْضِ، وَاجْتِنَابِ مَا كَانَ سَبَبَ الشَّقَاوَةِ أَوْ الْهَلَاكِ وَالْذَّمَارِ. وَمِنْ هُنَا يَنْجَلِي لِلْعَاقِلِ شَأْنُ عِلْمِ التَّارِيخِ وَمَا فِيهِ مِنَ الْفَوَائِدِ وَالشَّمَرَاتِ” ([4]).

التعامل مع التاريخ باعتباره قصصًا لا سننًا

وتلك آفة آخر تصيب فهمنا للتاريخ؛ فنظنه مجرد حكايات تُروى، وقصصًا تُتناقل، وليس سننًا تُهْدِي، وقوانين تُستنبط! ولهذا قرر ابن خلدون أن المستقبل شبيه بالماضي، أو أن الماضي يتكرر في المستقبل - طبعًا تَكَرَّر السُّنن والعِبَر، لا الأشخاص والأحداث؛ فقال: “الماضي أشبه بالآتي من الماء بالماء” ([5]).

والتاريخ، كما يوضح ابن خلدون، له (ظاهر): لا يزيد على أنه أخبار عن الأيَّام والدُّول، والسَّوابق من القرون الأول.. وله (باطن): يحتوي على نظر وتحقيق، وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق ([6]). لكن يبدو أننا نستسهل الانشغال بظاهر التاريخ، عن الغوص في باطنه؛ أي سننه وقوانينه!

الفهم الخاطئ للقدر

فمن يفهم القدر جَبْرًا وإكراهًا- كما أُلحِمَ رشيد رضا، فيما سبق- لن يلتفت لما أودعه الله تعالى في الكون والخلق من سنن، ولن يضع إرادة الإنسان موضعها اللائق من معادلات التغيير.. وفي هذا ظلم للإنسان من ناحية، وفهم خاطئ لسنن الله تعالى من ناحية أخرى.

فلو كان الإنسان معدوم الحيلة، ومسلوب الإرادة؛ لما كان ثمة معنى لتكليفه بإقامة العبادة، وبعمارة الكون، وبالسير في الأرض! أما وقد وقع التكليف بهذا، فإنه يعني امتلاك الإنسان لحرية الفعل والترك، والالتزام والإعراض؛ لأن الدنيا دار اختبار؛ ولا اختبار مع الإكراه.. ثم الآخرة دار حساب وجزاء.

فينبغي أن نفهم القدر فهمًا صحيحًا، ونعيد الاعتبار لموضع الإرادة الإنسانية أمام التدبير الإلهي.. دون أن ينحرف بنا الفهم إلى تصور أن في الكون من يشذ عن قدرة الله تعالى وسلطانه.. وإنما حرية الإنسان هي مما أَرَادَهُ اللهُ تعالى لخلقه في الدنيا.

الركون للراحة والدعة

“الفهم السنني” يوجب علينا العمل والجد والمثابرة، والأخذ بالأسباب وعدم التقصير فيها، وبذل الوسع واستفراغ الجهد.. هكذا كانت حياة النبي ﷺ وهو المؤيَّد من الله تعالى بالوحي وبالملائكة، ولو شاء الله لخرق له السنن!



لكن الله تعالى أراد من سيرة نبيه ﷺ أن تكون نموذجًا عمليًا لمن سيعقبها من أجيال؛ فجاءت سيرته العطرة على وفق السنن الإلهية الموثقة في الكون وفي الاجتماع البشري.. حتى إذا ما خولفت هذه السنن، وقعت الهزيمة، ولم يشفع للمسلمين وجود النبي ﷺ بين ظهرائهم! بل كانت هزيمتهم انتصارًا للنبي ﷺ؛ إذ دلّت على أن مخالفة أمره موجبة للهزيمة.

ولهذا فمن يرغبون في الركون للراحة والدعة، لن يشغلوا أنفسهم بالسنن الإلهية وما تستوجبه من عمل حثيث، وجهد متواصل، وتخطيط محكم! بل سيخلدون للنوم مُدَّعين توكّلهم على الله، وما هم إلا متواكلون!

{1} تفسير المنار، 4 / 114، 115.

{2} المصدر نفسه، 8 / 96.

{3} المصدر نفسه، 4 / 115.

{4} المصدر نفسه، 1 / 56.

{5} مقدمة ابن خلدون، 1 / 292.

{6} المصدر نفسه، 1 / 282.